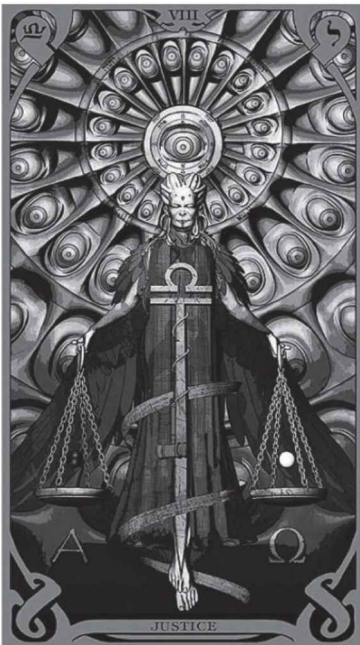
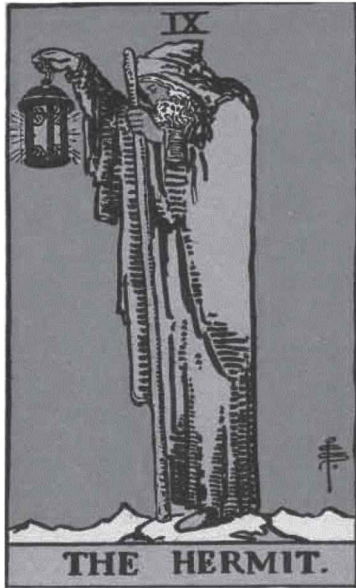


7

الشيطان يحكم

1650 قبل الميلاد



نبضات قلوبنا أُرجفت في ذلك اليوم برجفة الأرض، تب، تب، تب، دقات مرعبة على الصخر كأنما هي الطبل، تأتي من كل مكان، صوتها يزداد قوة، هناك شيء يقترب، بل مئات الأشياء.

نحن عمال سُمر الوجوه نعمل متجاورين نحمل رزقنا على سواعدنا. توقفنا جميعاً من الهلع، نحن نعرف هذا الصوت، قد حدث مثل هذا كثيراً في تاريخنا، تعلمنا أن هذا الصوت يعني النهاية، نهايتنا جميعاً بأبشع طريقة، فقد خرج الجبارون الغاشمون من مكانهم، ولن تمضي دقائق حتى يبيدونا من صفحة الأرض. كان من المفترض أن نهرب، ولكن شدة الصوت الذي سمعناه كانت أكبر ألف مرة من جميع الحوادث التي سمعنا عنها، وضعنا أحمالنا الثقيلة على الأرض، ليتك ترى وجوهنا المذعورة رغم أننا عمال أشداء، يحمل الواحد منا مثل وزنه خمسين مرة، لكن هؤلاء الجبارين شيء آخر، شيء مهول.

انفصلتُ أنا عنهم وحاولت تسلق الصخر ربما أعرف الخبر، هذه مهمتي، أنا عاملة على هذه الأرض المقدسة في ذلك الزمان المقدس في العصر الوسيط بعد موسى بألف سنة، كنت أجاهد لأتسلق، ساعدتني العاملات الأخريات حتى أنجزت الأمر وصعدت، نظرت إلى رفقائي من فوق، رأيت ملكتنا ترتجف وحولها جنودها.

المفترض أن إشارات الفرمون التي وضعناها على الأرض تيسر لنا طريقاً مختصراً إلى بيوتنا، لكن سرعتنا مقارنة بسرعة الجبارين أقل عشرات المرات، وهؤلاء لا يرحمون، لم تمض لحظات حتى رأيتهم من فوق، كان جيشاً لم تستطع عيني أن تبلغ آخره. جيش مقدمته شياطين، ومؤخرته شياطين، معهم دواب ضخمة يسيل الزبد من أنيابها ونسور

عملاقة وجوارح، ولم يكن هناك بد من أن أصرخ، وليهرب من يهرب
وليمت من يمت، كانت سرعة الجيش رهيبة، ونحن لا حيلة لنا، أغمضت
عيني وصحت في الجميع وأنا أعلم النهاية:

- اهربوا، اهربوا إلى البيوت، اختبؤوا وراء الصخور.

ولم يقدر أحد على الهرب، تجمد أكثرنا في مواضعهم وأغمضوا
عيونهم، الجبارون يقتلونك دون أن يشعروا بوجودك أصلاً، سنموت
ونحن نعمل في رزقنا، عسى أن نكون شهداء، نظرتُ إلى عيون القوم
الجبارين، جافة قاسية، سواعدهم وملابسهم مخيفة، ثم حدث شيء لم
يحدث مثله في تاريخ هذا العالم بأسره. توقف الجبابرة، فقط توقفوا،
جميع جيوشهم ووحوشهم وطيورهم توقفوا، ونظروا إلى ناحيتنا، كان
المنظر غريباً، جيش من الجبابرة والشياطين واقفون كتفاً بكتف،
ينظرون إلى مجموعة من العمال الضعفاء، صحت في رفاقي:

- انطلقوا، سيحطموننا تحطيمًا، انطلقوا أسرابًا وراء الفرمون.

فجأة تباعدت صفوفهم وخرج منها رجل عظيم الجسم والوجه راكباً
فرساً، نزل من فرسه وهو يتوجه إلى ناحيتنا، يا إلهي هل سيحرقوننا؟
خطوة واحدة منه تعادل مئة خطوة من خطواتنا، لكن هذا الرجل لا
يتوجه ناحيتنا، إنه يتوجه ناحيتي أنا وهو يبتسم. تجمدتُ من الرعب
وأنا أنظر إليه يقترب مني، كان في منتهى الوسامة والعظمة، رأيتَه يرفع
رأسه إلى السماء بدعاء، ثم ينظر إليّ ويمد لي يده ويحدثني، ولكن هذا
مستحيل، هؤلاء لا يفهموننا ولا نفهمهم، لكن بالنسبة إلى ذلك الرجل
بالذات لم يكن الأمر عجباً، فقد كنتُ أنا نملة، وكان هو سليمان.

«من ظن أن الحيوانات حمقى فهو الأحمق».

كائنًا كنت فوق نهر الفرات أنظر إلى كل شيء وأشهد، تلفحني الشمس وألفحها، في مملكة سليمان. لم ترَ الكائنات في نهر الزمن مملكة أعظم منها، أرض مقدسة واسعة من النيل إلى الفرات، وليست عظمتها في سعتها ولكن في المملوكين فيها، وإنهم جميعًا سيُحشرون اليوم، في حضرة سليمان. كنتُ طويلًا متعاليًا فوق صفحة الماء أراقب كل شيء، حتى رأيت صفوفهم تأتي، ولولا أنني أملك قلبًا من حديد لانفطرت من المنظر. ملايين البشر ينتظمون صفًا صفًا، وعشرات الملايين من الجن والشياطين، مردة وعفارتة وجن طيار وغواص، ومئات الملايين من صنوف الحيوان والطيور والوحوش والهوام، ينتظمون ويمشون بأمر سليمان، لا تدري كيف رؤُضهم ولا متى، لكن أعدادهم تسد الأفق حتى تصل إلى الجبال، كل صنف عليه رئيس من جنسه، فترى جيشًا من النمرور عليه نمر، وجيشًا من الفيلة عليه فيل، وجيشًا من شياطين البحر عليه ماردر بحر.

جاء سليمان ودخل تلك الساحة، أبيض مهيبًا كان، نظر إلى عرشه، وأي شيء مثل عرش سليمان، كان موضوعًا في نهاية الساحة تراه من ظهره كأنه موضوع بالمقلوب، مشى سليمان إلى ناحيته. كان مفصصًا بالياقوت واللؤلؤ فصًا فصًا ومحاطًا بأسود ذهبية عن يمينه ونسور ذهبية عن شماله، وتحت ثلاث درجات، صعد سليمان الدرجة الأولى فتحركت الأسود الذهبية وبسطت أيديها.. ثم صعد الثانية فنشرت النسور الذهبية أجنحتها.. وصعد الثالثة فاستدار الكرسي كله واعتدل، وظهرت حوله تماثيل من ذهب شديدة الإتقان. حتى جلس عليه سليمان فحدث ما لا تصدق حدوثه في أي حضارة قديمة، تحرك نسر من النسور الذهبية المثبتة في الجدار خلفه والتقط تاجًا عظيمًا وضعه على رأس سليمان، وهبطت من السقف حمائم منحوتة بعناية تنثر من أفواهها مسكًا وعنبرًا على سليمان، ثم صعد عمود من جوهر أمام الكرسي عليه التوراة ليقراها سليمان. لكن اليوم لم يكن لقراءة التوراة، بل كان يومًا

مشهودًا، كان سليمان يأخذ العهود من كل صنف من صنوف الكائنات كلها من الجن والحيوانات، كان يتلو عليهم العهود السليمانية، وهي حروف من ذكر الله يكمن فيها سر الحرف وقوته تربط روح الكائن الذي أمامك أيًا كان فلا يؤذيك.

ولعلك تسائل نفسك مَنْ أنا؟! ذاك الذي يتحدث من فوق صفحة الماء، انظر جيدًا إلى النهر، ألا تراني؟ لعلي أعذرك، فذلك العلم الموجود هنا تحت كرسي سليمان لا أتخيل أنه سيصل إلى أحد بعده، ربما يفقه الناس فيما يأتي من الزمان أن الجمادات إذا نظرت إلى أدق دقائقها سترى أشياء تتحرك حركات عجيبة.. وربما ساعتها تفهم بعضًا من ذلك العلم، إن كل جماد حولك تسكن فيه روح، إن كل جماد حولك هو في الحقيقة حي، ينطق ويُسبِّح، ويشاهدك ويراك، هل عرفت من أنا الآن؟

نعم هو ذلك أنا، ذلك الطويل الممرد من القوارير.. الهرم الزجاجي العالي المبني على الماء، الذي يُشرف على ساحة قصر سليمان، لكن مهلاً، إن سليمان غاضب، فبينما حضرت كل الكائنات لأخذ العهود، غاب كائن واحد، الهدهد.

«وإن كل شيء عليك شهيد، جلدك وأصابعك

وحتى الأرض التي تمشي عليها».

يجري بك كل شيء وفيك كل شيء، بداية مكتوبة ونهاية مختومة، وأنت وسط كل هذا تسبح في النهر، لن أحكي لك حكاية الهدهد لأنك تعرفها منذ صغرك، بل سأحكي لك ما لم يتفوه به أحد، وما لن تسمعه مرة أخرى، من أنا؟ أنا الذي حولك أحوم وأنت في داخلي تحوم، ما فهمتني يومًا قط ولا رأيتني، لكنني هنالك وأنت تعلم هذا، أنا الزمن،

كلمة واحدة لو حاولت تفسيرها بكل الطرائق ستفشل، لكن ليس هذا مُهمًا، إنني اليوم قد نطقت بما لم ينطق به أحد.

انسَ سليمان وحشوده وجنوده هؤلاء، وسأعود بك سابقًا في نهري، نهر الزمن، لنشاهد سليمان الحاكم العادي قبل أن تكون له هذه الأبهة كلها، ها هو هناك، انظر إليه فوق كرسيه الذي يماثل أي عرش ملك عادي، وقد آتاه الله الحكمة فأصبح يحكم بين الناس بالعدل، أوحى الله له بأمر عظيم، كان هو سببًا لكل شيء يحدث في الأرض المقدسة حتى نهاية الزمان، أمره ربه أن يبني مسجدًا عظيمًا يُعبر عن هذه المملكة العظيمة المسلمة، المسجد الأقصى العظيم، ليكون حرماً تُشد إليه الرحال من كل مكان من المملكة التي تضم الشام والعراق وجزءًا من مصر. لكن كان يوجد أمر غريب بشأن هذا المسجد، لقد أمر الله سليمان أن يبنيه دون استخدام الحديد، ليكون منبرًا للسلام، فلا يصح أن يُستخدم فيه شيء من أدوات الحرب، كانت هذه معضلة، كيف تقطع الأحجار دون حديد؟

استدعى سليمان رجلًا اسمه آصف بن برخيا. دخل آصف وكان شديد الجمال، وهو أمين سر سليمان، وعالم في فنون العلوم والطب، سمع آصف طلب سليمان، فأغمض عينيه يتفكر، ثم قال بشيء من الأسف:

- ليس على الأرض شيء يمكن أن تفعل به هذا إلا دابة الأرض.

نظر إليه سليمان متسائلًا، فقال آصف:

- سيدي هي دودة من ديدان الأرض، خلقها ربي وهي تفلق الحجر كأنها السكين واسمها السامرية.

- ايتني بها أينما كانت.

- يا نبي الله.. هذه سميت سامرية، لأنه لا يملك علمها إلا رجل

استعان به موسى في نحت ثياب الكهنة المصوغة من الذهب،

وكان يستخدم هذه الدابة لقطع الذهب فسميت باسمه.

قام سليمان عن عرشه وقال:

- أتقصد سامري موسى، الأعور؟

- هو هو يا نبي الله، وإنه قد ساح في الأرض ولا يدري أحد أين هو، إلا إذا...

لمّا أتاني ملك الموت ليقبض روعي امتنعت، حتى قال لي إنه أمر الله.. فأطعت، أتدري لمّ امتنعت؟ لأنني علمت أن هذا الذي سيُخلق من تراب سيسفك على ظهري دمًا، هكذا قالت الملائكة التي تقدس الله وتسبحه في أرجائي، قلت في نفسي: «أكون هذا جنسًا أسوأ من الشياطين؟» والحق أنني رأيت من الشياطين ما لم أر من كل أجناس الزمان، وها أنا اليوم أشهد قصة جعلتني -وأنا الأرض الثابتة- أرتجف، قصة سليمان، رأيت في ذلك اليوم يبحث عن رجل أعور، وحدي أنا أعلم أين هو، وحدي أعلم فدائحه التي يفعلها منذ أن أطلقه موسى النبي، وحار سليمان، حتى قال له آصف إنه لن يعلم مكان السامري إلا الجن والشيطان، وكان المشهد التالي.

سليمان يمشي في غابة مشتبكة الأغصان، يبحث عن أصناف معينة من الجن، ولم يكن ساعتها قد ملّكه الله على الجن، كان مثله مثل جميع الأنبياء يرون الجن، وفي تلك الغابة برز له الشيطان الذي كان يبحث عنه، قميء الوجه يرتدي عباءة على رأسه.. «أبيزي»، شيطان يعيش من أيام موسى، وأنه هو الذي قسّى قلب الفرعون وأثار في صدره أن يلاحق بني إسرائيل، ولم يكن أحد أنسب منه ليدل على السامري الأعور. تبسم أبيزي وظل يماطل حتى تبين لسليمان أنه لا يعلم، قال إن ذاك الأعور السامري قد توجه ساعتها ناحية الشمال، هذه معلومة من ألف سنة ولا تعني شيئاً، إلا أن الشيطانة «إنسيجوس» قد تكون تعلم فإنها تعيش في الشمال.

أيام مضت وسليمان يبحث حتى بلغ أقصى حدود مملكته في الشمال، وبرزت له إنسيجوس بشعرها الأبيض ووجهها الدميم، ولم يكن كلامها بأحسن من مظهرها، قالت له:

- اعلم يا سليمان أن أورشليم التي تملكها هذه سيغزوها من بعدك الملوك وستصير خرابًا وحروبا إلى يوم الدين.

لم يصل سليمان إلى شيء، ومضى عائداً إلى موضع الحكم وقد بلغ به اليأس مبلغه، وبينما هو في الطريق إذ برز له ما أثار قلبه؛ فجأة رأى شيئاً مثل عود القصب الطويل يطير، ووقع العود تحت قدم سليمان، وسمع صوتاً يقول:

- إنك يا سليمان لو مت لن تأخذ معك شيئاً إلا قدر هذا العود، أرفع أذرع من الأرض تدفن فيها، هذه الأرض التي ملكتها من شرقها إلى غربها.

قال له سليمان:

- من أنت؟

- بل من أنت حتى أجيبك وأنا مخلوق من نار وأنت بشري من طين؟ وإن نجمتي في السماء يعبدونني باسمها، «أشموداي» هو اسمي، يا سليمان أنت ملكت البشر والطير ولم تشبع، أتريد أن تملك الجن أيضاً؟

- لا أريد منكم شيئاً، إنما أريد أن أبني مسجد الله على الأرض المقدسة، وأريد السامري لأجل هذا، وليس من أحد على وجه الأرض قد يعرف مكان رجل كهذا إلا أمثالكم من الجن.

قال أشموداي:

- فاسأل الهدهد، فهو طائر رحالة في الأرض، وهو من الطيور التي ترى الجن، فإن لم يكن الهدهد يعلم، فلا أحد يعلم.

- أي هدهد، الأرض ملأى بهم؟

واختفى أشموداي من أمام سليمان كأن لم يكن.

«يا هدهد الديوان، نبئنا عن الأعور الهجان».

فراشات عملاقة بأجنحة ملونة، هكذا يقولون عنا إذا رأونا محلقيين أسرابًا، إسراعنا في السماء كسرعة الخيول أو النمر، وهكذا كنا في هذه اللحظة، وكنت أنا معهم في السرب، هدهد في جماعة من الهداهد نُحلق جنوبًا هاربين من شتاء الأرض كما نفعل في كل سنة، لكن هذه السنة تحديدًا لم تمر هجرتنا إلى الجنوب بخير، بل في الحقيقة أنا وحدي الذي لم تمر هجرته بخير، أنا وحدي رأيت كل شيء.

بعد نزولنا من الأرض المقدسة إلى أرض كوش المليئة بالبشر سُمر الوجوه، كان علينا أن نقطع البحر إلى سبأ، وفي وسط البحر نزلنا في جزر حنيش نستريح ثم نكمل طريقنا إلى سبأ، ولم تكن حنيش مسكونة بالإنس، لكننا كنا نرى فيها شيئًا غريبًا كل سنة، ليس شيئًا بل شخصًا، يعيش على واحدة من هذه الجزر وحده. أحيانًا نراه في الجزيرة وأحيانًا لا نراه، كان الرجل متوحدًا يعيش في دير كبير أسود ذي بروج مخيفة، لا نراه إلا بعباءة سوداء أو حمراء يغطي بها رأسه، وديره يشبه معابد اليهود. نزلنا على جزيرة الرجل الغريب ولكننا لم نشاهده، مكثنا أيامًا نكسب رزقنا على الجزيرة ثم قرر السرب الرحيل إلى سبأ، كنت أنا في الصفوف الخلفية، وبدأ انطلاق صفوف الهداهد مسافرين، وكانت تحين مني نظرة إلى الدير كل حين، ثم أتت النظرة التي بدأ منها الأمر كله. وجدت ذلك الباب يُفتح والرجل يخرج في عباءة سوداء، هذه المرة كان لا يغطي رأسه، المرة الأولى التي أرى وجهه، ملامح حادة وشعر أسود جعد طويل، جسده يتضح من تحت العباءة أنه طويل وقوي البنية جدًّا،

ربما هو أقوى جسد بشري رأيته في حياتي، تخلفت عن الركب وحلقت إلى شجرة قريبة أنظر.

رأيت الرجل يقف على شاطئ البحر، ينظر إلى ابتعاد الهداهد في الأفق، ثم مشى ناحية البحر، وهنا حدث ما جعل عرفي يتصلب على رأسي، هذا الرجل لا يمشي ناحية البحر، هذا الرجل يمشي على البحر. توقف الرجل في وسط البحر وعيني السوداء الصغيرة تكاد تفر، ثم فتح ذراعيه عن آخرهما، وبدأ الهواء حوله يتحرك، لو أن أحدًا في الدنيا أخبرني أن مخلوقًا واحدًا على هذه الأرض يقدر أن يحرك الهواء ما صدقته، حتى الطيور تتحاكى مع الهواء ولا تحركه، أما هذا فيتحرك الريح لحركة يده، صنعت الريح حوله دوامة من مياه البحر وهو واقف وسطها كعفريت من الجن، لا بل إن العفارتة لا تفعل هذا، ونحن الهداهد نراهم ونعرف قدراتهم، وعلى ذكر العفارتة، رأيتهم حضروا كأنما يحضرون بذكرهم.

فجأة من أسفل أعماق البحار برزت رؤوس وأجساد، زرق الوجوه والعيون، جن البحر الغواص، برزوا حوله كأنما انشق البحر عنهم، كان لا يزال يفتح ذراعه، وجدته يرفع رأسه ويفعل ما لا يصدق، لربما أنا أحلم، إن هذا الرجل يرتفع في السماء، هو لا يحرك يده وليس لديه جناح، فقط يرتفع، هذا يخالف كل طبع بشري وشيطاني أو حتى حيواني، هذا الشيء يتحرك الهواء تبعًا لأمره، وهو لا يحرك يده وليس لديه جناح، فقط يرتفع، ولم أكن أدري أن ما رأيته هذا سيصنع فارقًا في هذا العالم.

«إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء

فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة»

الشافعي



بشر إنسان، علمت ما لم يعلمه إنسان، وتعلمت جميع علوم الإنسان، أمضي مع سليمان في كل مكان، آصف هو اسمي، آصف بن برخيا، جعلني نبي الله أمين سره وحفيظ علمه، ومن يملك العلم يملك البشر، كل العلوم أصولها محفوظة عندنا، تحت كرسي سليمان، أمرني فحفرت له تحت كرسيه متاهة من الأنفاق يستحيل أن يصل إليها إنسان، فيها كتب قيمة، من صحف موسى وإبراهيم حتى علوم سليمان، متاهة خبأنا فيها تابوت العهد، ووعاء المَنِّ والسلوى، وعصا موسى، وكل كنز قيم وضعناه هنا، بعيداً عن عيون شياطين الإنس والجن.

أما سليمان فأوتي أضعاف تلك العلوم كلها، في ذلك اليوم كنت معه في سفره وبحثه عن السامري لينفذ أمر الله ببناء المسجد، ورأيت يكلّم الطيور يسألهم عن الهدهد، قال لي إن الطيور أنبأته أن الهداهد سافرت في هجرتها الشتوية، وأنها جميعاً ستعود بعد شهر من الزمان، لكن سليمان بقي مُصِرّاً على البحث عن أي هدهد لم يلحق بركب الهجرة، وفي ذلك اليوم وأنا أمشي معه، قال لي سليمان:

- إني رأيت رؤياً يا آصف، فعبرها لي.

قلت إنني سأحاول، فقال لي:

«رأيت رجلاً هو أجمل إنسان، ورجلاً أعور هو أبشع إنسان، الجميل يحمل خشبة ثقيلة ويمضي وسط الناس إلى حتفه والجنود يضربون ظهره، والبشع واقف والشماتة في عينيه، وقف الجميل ليرتاح قليلاً، فقال له البشع الأعور هيا امش، أسرع لماذا تتلأأ، فنظر إليه الجميل وقال: أنا سأرتاح في النهاية، أما أنت فستمضي في الأرض تائهة حتى يأتيك الموعد، ولم يلبث إلا أن ضرب أحد الجنود الرجل الأعور، وقالوا له: يا هذا.. تعال واحمل الخشبة عن الرجل حتى نوصله إلى موته، فحمل البشع الخشبة وسار بجوار الجميل».

تعجبت من الرؤيا وقلت لسليمان:

- لست أدري.. لكن شيئاً ليس حسناً سيحصل.

برز من بين الأغصان وجهه. توقفنا ننظر إليه، رجل جميل العيون يبدو غريباً عن المملكة، قال له سليمان:

- من الرجل؟

- أتجد الوقت لتدور في البرية وتسال الناس عن أسمائهم ومُلكك قد زال.

غضب سليمان وقال له:

- عن أي ملك تتحدث؟ أنا أبحث عن السامري.

برقت عيون الرجل الجميلة ببريق حزين وقال:

- يا سليمان، إن السامري الذي تبحث عنه جالس على كرسيك يحكم أرضك.

توقفت قلوبنا وتجمدت أطراف عيوننا، وشعرت بسليمان يتغير وجهه من الغضب إلى الخشوع، أكمل الرجل ذو العيون الجميلة، الذي كان من الجن:

- يا نبي، لقد فتن السامري قومك كما فتن من قبلهم قوم موسى.

ظل سليمان ينظر إلى الأرض في مشاعر حزينة كأنه فهم تعبير الرؤيا وكان الرجل يكمل:

- يا سليمان لقد خرج السامري للناس بكل الأعاجيب التي يفعلها، واجتمع إليه حشد من كبراء رجال بني إسرائيل فقام فيهم خطيباً، قال لهم: «إن سليمان كافر وساحر، فالتمسوا كفره وسحره في متاعه وبيوته»، ولقد تبين أنه على حق، ولو أن أحداً من بني إسرائيل رآك الآن لقطع رأسك.

استشاط قلبي غضبًا على الرجل وقلت له:

- ويحك يا هذا، ما هذه الأضاليل التي تتفوه بها؟

أغمض الرجل عينيه ثم فتحهما بأسى وهو يقول:

- لقد برزت أصنام لآلهة مصرية وبابلية في بيوتات زوجاتك يا

سليمان، أخرجها السامري للقوم كما أخرج العجل لقوم موسى،

وأخرج لهم كتبًا فيها سحر من تحت كرسي عرشك، وثار الناس

عليك ثورة لم أرَ مثلها، بل ونصَّب السامري نفسه المسيح

المنتظر المكتوب في النبوءات، وهو الآن يجلس على عرش داود.

نظر الرجل بعيون خائفة وراء سليمان ثم اختفى من موضعه، نظرنا

خلفنا فإذا رجال من مملكة المقدس، يتناثر الشرر من عيونهم ناظرين

إلى سليمان، ناقلين على من كانوا يظنونه نبيًا، ثم تبين أنه كافر.

«لتسبيحة واحدة يقبلها الله، خير مما أوتي آل داود».

مقامي من مقام من يحملني، كريمًا كان أم لئيمًا، شيطانًا كان أم

نبيًا، فماذا أنا؟

أكون للضعيف سندًا وللقوي سلاحًا وللطفل ملهًا وللنبي آية، يتوكأ

بها ويهش بها على غنمه، ها أنت قد عرفت، أنا تلك العصا، أنا التي

عشت على بلاط الملوك الصالحين، وأنا الآن أتمرغ في الأرض الطين

وتسيل عليَّ دماء مالكي، سليمان النبي، لقد اجتمع عليه قوم يؤذونه

هو وصاحبه، كيف يُضرب نبي ويُتَّهم بالكفر؟ كنت أشعر بروحه،

ليست غاضبة أو ثائرة، بل خاشعة.. خشوع التوبة. قام آصف بن برخيا

من الأرض مضرًا بجراحه، يتحامل على نفسه ويقيم سليمان، قبض
سليمان على يده وقال بوهن:

- دعني يا آصف وعُد إلى بيت داود، فانظر إلى ذلك السامري
وأتتني بالخبر.

- يا نبي الله.. وأنت؟

- لقد ابتلاني ربي، لربما أصبت ذنبًا، أو ظلمت نفسي، فدعني وربّي.
انصرف آصف، ومشيت مع سليمان، أنا عصا الملك أصبحت أوضع
على الأرصفة ومرافئ الصيادين، عمل بي في رعي الغنم بالأجر ليحصل
على قوت يومه، وكان يخفي وجهه دومًا، ويتلمس أخبار المملكة، لكن
ما الذنب الذي ابتلاه الله بسببه؟ كان كلما أتته خواطر تهز روحه رفع
صوته وقال: «يا وهاب»، وفي ذات ليلة بينما كان مستلقيًا على أرض
مملكته وأنا بجواره ملقاة بإهمال، رأيت رجلًا بهيًّا يرتدي رداءً أخضر
ويمسك بعصا يبدو عليها الهناء، ينظر إلى سليمان ولا يطرف، ثم مد
عصاه ونكز بها سليمان المستلقي، فلما رآه سليمان بكى. تآقت نفسي
لتعرف من هو الرجل، قال له سليمان:

- أهو أنت؟

أوما الرجل برأسه إيجابًا وقال:

- أتذكر في تلك الليلة يا سليمان، لما رفعت رأسك عاليًا وقلت
لتطوفن على جميع نساءك فتلد كل واحدة منهن فارسًا يجاهد
في سبيل الله.

سكت سليمان والتساؤل في عينه فأكمل الرجل:

- فإني أخبرك، لم تلد واحدة من نساءك، إلا واحدة قد ولدت شق
إنسان مات فور ولادته. والذي نفسي بيده، لو قدمت مشيئة الله

قبل جملتك لحملت كل امرأة منهم، وكما أن سهوك كان في أمر نساءك، فإن البلاء قد جاءك من ناحية نساءك، فظهرت في بيوتهن أصنام أظهرها الكذاب.

كان سليمان يبكي خشية لله وتوبة، فقال له الرجل:

- ولكن اعلم يا سليمان، إن لكل نبي دعوة تستجاب من فورها، فادعُ بها وعد إلى ملكك واتقِ الله.

استدار الرجل لينصرف.. فقال له سليمان:

- وأنت أيها الخضر.. ماذا كانت دعوتك لربك؟

ارتجفت ذرّاتي، أذاك هو الخضر؟ التفت الرجل إلى سليمان فملأت عيني من مرأى وجهه، ألا يهرم هذا الرجل أو يموت؟ وجدته يقول لسليمان:

- أنا علمني ربي علم الزمن، أبطئ منه لنفسي متى شئت وأعود، ويبقى زمان الناس حولي على حاله، هذا يجعلني أحث أرضاً وأخضرها في شهور فتبدو عند الناس دقائق، وأبني بنياناً في أسابيع فتبدو عند الناس ثواني، أعرف معلومات عن سفينة أو جدار في أيام فتبدو عند الناس لحظات.

ودون كلمة أخرى، استدار الخضر وانصرف. ورفع سليمان ذراعيه إلى السماء وبكى قلبه وهو يقول:

- رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت الوهاب.

وكان مقام الأنبياء عظيمًا عند رب الأرضين السبع والسموات، لا تخرج الدعوة من أفواههم إلا وقد تحققت قبل أن يتلفظوا بها، كرامة لهم وفضلاً، ولم يؤتِ الله لسليمان ملكاً فقط، بل سخر له كل شيء على

هذه الأرض، سَخَّرَ له الريح، وسَخَّرَ له الشياطين. وانقلب السحر على الساحر، وعاد سليمان، وكانت عودته مخيفة، ولم يرحم سليمان منهم أحدًا.

«قد يسقط المُلْكُ بكلمة واحدة ويعود بأخرى».

أجوب الأرض جيئةً وذهابًا قبل أن تطلع الشمس، أرى كل أحد ولا يراني أحد، أرى بشرًا يعملون وبشرًا يسجدون، الكل يمضي ويروح في معاشه، ملوك وحضارات في الشرق والغرب، ولم أرَ أحدًا مثل سيدي هذا، في عينه ظفرة عجيبه لا أكفُّ عن النظر.

إليها كل حين، لم يره أحد إلا آمن به، جن وإنس، وكنت أنا من الجن، ما الذي يسعك أن تفعل إذا رأيت شخصًا يرتفع في الهواء بلا أجنحة ويمطر السماء ويوقفها بأمره؟ سرعته كسرعة الريح، ينتقل إلى الأفق قبل حتى أن تدير عنقك إليه، خضع له بنو إسرائيل، ودانت له الشياطين، كان يحكم مملكة سليمان التي تمتد من النيل إلى الفرات، وكنت أقف بجواره أنظر إلى ملامحه التي ينطق كل شيء فيها بالقوة، وفجأة، ومن ناحية الأفق البعيد، أحسست بأمر، ولم أكن وحدي الذي أحسست به؛ طاقة روحية عالية آتية من هنالك، أنا أعرف هذه الطاقة، كان الأعور ينظر إلى الأفق، ومن بين عمدان القصر دخل إلى الساحة في لمح البصر شيطان الأخبار والكارثة تظهر في عينيه، قال وعيونه ترتجف:

- لقد.. لقد أتى سليمان، و...

سمعنا صوتًا عاليًا كأنه احتكاك الحديد بالأرض، ويتعالى الصوت ويقترب. قال الشيطان بصعوبة:

- سيدي، إنه.. إنه يسحبهم مثل الإبل.

الطاقة الروحية التي أشعر بها، إنها طاقة عظيمنا لوسيفر، لكن ما الذي... فجأة برز لي المشهد الذي كان بداية العذاب المهين، سلاسل ضخمة تحتك بالأرض، سبع سلاسل، يسحبها كلها إنسان واحد بلا جهد، في نهاية كل سلسلة كانت كارثة؛ إبليس بكامل مهابته مُساق من عنقه في سلسلة، و«إيبيفاس» المارد ذو الوجه المقسوم.. في أخرى، وسلسلة فيها جنيات الجبل السبع مربوطات من أقدامهن في بعضهن بعضاً، كل هؤلاء يسحبهم سليمان، وفي يده خاتم غريب، المصيبة أن جميعهم ظاهرين أمام الناس يراهم كل أحد بعد أن كانوا خافين عن العيون منذ بدء الخلق، واليوم أظهرهم سليمان بآية من الله له وحده، ومشى الناس وراء موكب الشياطين الأتلاء متعجبين تارة وهازئين تارة، كان سليمان يُعلم الإنس والجن معنى النبوة، لم أقدر على رؤية بقية المشهد، ليس لأنني هربت ولكن لأنني شعرت بنار محرقة تمسكني من حلقي، وانثنت يداي إلى ظهري وتجمدتا كأنهما مقيدتان، وصرخت، العمال البشر الذين حولي بدؤوا يرونني، رباه هل ظهرت أنا الآخر للناس؟ دون كلمة أخرى سقطت على وجهي وحانت مني نظرة إلى سيدي الأعور. وعلى ذلك الكرسي العظيم، كرسي سليمان، لم يكن الأعور جالساً، ولا واقفاً، كان الكرسي فارغاً، لقد هرب السامري.

«إذا أتى النبي هرب الكذاب».

عذب سليمان الجن الشياطين عذاباً شديداً بالحديد والنار، وسلسل كثيراً منهم وحبسهم وأذلهم، ولم يخبره أحد بمكان السامري، لأنه لم يكن أحد منهم حقاً يعرف، إلا إبليس، الواقف هناك في سلسله يرفض حتى أن ينحني أو يتكلم، ومن رفض الانحناء لأمر رب العالمين لن

ينحني اليوم لسليمان، كان كبره يمنعه، ولو نظرت إلى عينه لوجدت فيها كراهية ومقتًا لا حد لهما لسليمان، واسم سليمان، ولقد أقسم بينه وبين نفسه، أن يدمر اسمه، ويجعل مسجده هذا الذي يريد أن يبنيه وبالأعلى الأرض كلها، ظلت الشياطين تصرخ وتتألم، حتى رأوا ظلًا على الأرض قادمًا من نافذة قريبة، نظروا إلى ناحية الظل فوجدوه واقفًا بكل صغره وضعفه، كان ذاك الهدهد.

طار بجناحيه وحط على يد سليمان، لم يكن أحد في الكون يفهم لغة الطير إلا هو، ولقد أنبأ الهدهد سليمان عن كل شيء، أنبأه عما رآه في تلك الجزيرة، وأنبأه عن مكانها، ومن وصف الهدهد عرف سليمان مكان السامري، ولكن أيكون في الجزيرة نفسها أم أنه هرب منها خوفًا على حياته؟ قال له الهدهد:

- إن الفئة الوحيدة التي تعرف خبره هي فئة الجن الغواص، وتلك فئة رآها حول السامري في الجزيرة تخرج من قاع البحر ولا تقدر على العيش فوق الأرض.

وفي تلك الجزيرة عند ذلك الموقع المخفي منها كان الأعور في ديره يجمع بعضًا مما يحتاج إليه تمهيدًا لينطلق إلى أقصى الأرض ليسيح في بلاد أخرى، كان مطمئنًا إلى سرعته، حتى لو عرف سليمان موضع الجزيرة فلن يصل وجنوده إليها إلا بعد شهر من الترحال والإبحار، لكن عوار القلب يغطي على عوار العقل، لم يتنبه أنه يتعامل مع نبي. فإن كان هو قد تعلّم مدارات الرياح وعلومها، فإنه لم يعلم أن الرياح ذاتها مُسَخَّرَةٌ لسليمان، تجري بأمره، ترفعه وتنقله حيث شاء هو وجنده، وبسرعتها القصوى، ولم يدر الرجل إلا وعشرات من الرجال الأشداء يقتحمون عليه ديره ومعهم سليمان وأصف بن برخيا، قيده الرجال وأخرجوه من ديره

الأسود مسحوبًا على وجهه، ووضعوه تحت أقدام سليمان الواقف أمام الدير. نظر الرجل بعينه الواحدة الساخرة إلى سليمان وهو يقول:

- ألم ينبئك علمك أنك لن تُسلَّط عليَّ يا سليمان، ألم ينبئك موسى؟
نظر إليه سليمان بصرامة، كان يعلم أن موسى قد منحه بأمر الله أن
له في الحياة ألا يقتله أحد، حتى يأتي له موعد لن يخلفه، قال له سليمان:
- إن ما سأفعله بك أشد من القتل يا أعور القلب.

خرج آصف بن برخيا من داخل الدير وهو يحمل وعاءً من رصاص
فيه ديدان ضخمة تتلوى يمينًا وشمالًا ذات مظهر مرعب وقال:
- يا نبي الله، هذه السامرية.

أومأ له سليمان برأسه تفهمًا، وبالفعل لم يقتل سليمان السامريَّ،
بل عمل شيئًا أشد، وضعه في تابوت من رصاص ثقيل وحديد، ونظر
إليه نظرة أخيرة فوجده لا يزال هازئًا هادئًا واثقًا، أغلق عليه سليمان
التابوت بأقفال وقيود، ورمى التابوت في أعماق نقطة في ذلك البحر.
وسبح تابوت الوحش في الأعماق، والجن الغواص ينظرون إليه في
حيرة، ثم ينصرفون عنه إلى معاشهم. وعاشت البشرية عهدًا سلامًا بلا
فتنة.. حتى حين.

***** تمت *****

أشعل بوبي فرانك تلك الشمعة في جوف الهرم ونظر ببطء إلى
يمينه، كان ليوبولد ولويب ساقطين على الأرض كأنما خلت منهما
الروح، تبسمت ملامح بوبي بإرهاق وانحنى ليسحب جهاز التسجيل من
يد ليوبولد ثم قال بخفوت:

- ليس كل من خرج من جسده واستمتع يقدر على العودة، ارقدا
هاهنا تلعنكما الموجودات.

تحرك بوبي بعكازه بصعوبة، وحاول دفع جسده الهزيل في الممر الصاعد إلى المخرج، واحتاج الأمر منه إلى ساعة كاملة من الصبر والمشقة فقط ليضع جسده في الممر، وامتلأ وجهه بالعرق وهو يدفع نفسه صاعدًا، وبدأ المخرج بعيدًا جدًّا، لكن شيئًا ما أربب فؤاده، فهناك عند المخرج ظهر ظل ديبوك. أغمض بوبي عينيه وتلا من العهود السليمانية ما تلا، ولو يعلم الناس ما في حروف ذكر الله من قوة على خلق الله ما تركوها يومًا، ألقى نظرة أخرى إلى المخرج فاستراح قلبه.. لقد فرَّ الشيطان.. وخرج بوبي فرانك إلى الحرية.

تسجيل من كاميرا فيديو متوسط الجودة. يوجد بعض التشويش لكن الصورة واضحة على أي حال. وجه بوبي فرانك يظهر في التسجيل وملامح الإعياء ظاهرة على وجهه، كان ينظر إلى الكاميرا بهمٍّ ثم قال بصوته المليء بآثار التوحد: «هذا بوبي فرانك وهذه تسجيلاتي الأخيرة، لن يتركوني على قيد الحياة أيًّا ما أخرى، فاسمع مني ما أريد أن أقول، واحفظ هذه التسجيلات في عينيك ولا تغفل عن ذكر أي شيء فيها.

سأكتب لك جميع الاستماعات التي التقطتها أرواحنا من قصة النبي موسى وسليمان، أنت ستلاحظ دومًا وجود أجزاء من قصة النبي سليمان في أي مجموعة من الأسرار العميقة، فهو أهم شخصية عند التنظيمات السرية كلها، ولقد أفنوا كثيرًا من أعمارهم في محاولة تشويبه حتى أوصلوا سطور تكفيره الصريح إلى التوراة ذاتها.

جميع علوم سليمان التي تركها للعالم من بعده تحولت إلى كتب سحر تتلوها الشياطين على الناس ويكذبون على سليمان كما كذبوا على كل الأنبياء قبله، فكتاب آدم تحول إلى سفر رازئيل المليء بالسحر، ألواح إدريس المقدسة تحولت إلى متون هرمس وتعاليم تحوت السحرية،

صحف إبراهيم تحولت إلى نصوص الفيدا الهندوسية الخرافية، وعلوم سليمان كذلك تحولت إلى ثلاثة كتب سحرية، الأول يُطلق عليه اسم الهجرومانتيا السليمانية Hygromanteia، وفيه تفاصيل عن طرائق السحر والتعاويذ وطرائق تحضير الجان وعلوم تنجيم، وأصبح نواة للسحر الأسود الذي غزا العالم فيما بعد، الكتاب الثاني والثالث هما كتابا مفتاح سليمان الأعظم والأصغر، وهذان فيهما تفصيل لكل أنواع الشياطين بقدراتهم وكيفية تسخير كل منهم، كل ذلك نُسب لسليمان، أما علمه الحقيقي، فلا أحد ملكه من بعده.

ورغم أن علم سليمان كان عظيماً جداً لكن واحداً فقط في مملكته أوتي علماً مختلفاً عن علمه، وهو نبي الله الخضر، وهو الذي نقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام عند سليمان في طرفة عين، ذلك لأن معجزته أنه يتحكم بالزمن، ولم يُعطَ علم الزمن لأحد من قبله ولا بعده.

أما أنا فأسلمت.. نعم أسلمت وجهي لله، أسلمت لدين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ولقد كنت في طبقة عالية من الدنيا، أنت لا تتخيل في أحلى خيالاتك أنها موجودة، قدرتي على الاستيعاب والحفظ بسبب التوحد رغم صغر سني ومكانة والدي أدمجاني في مرتبة عالية في المنظمة الماسونية، كنت في الواقع أصغر إنسان ماسوني، أصغر من وصل إلى هذه الدرجة، كنت أنا المعجزة كما يقولون، وأبي كان يجهزني منذ الصغر لأكون شيئاً كبيراً في هذا الشر الذي يفعلونه. نعم كل ما يفعلونه شر، قد يظنهم البعض حماة الحضارة والنور والأسرار إلى آخر هذا الهراء، لكن هؤلاء يحصلون على العلم ويفعلون به الشر.

أما أنا، فأسلمت.. ولم يكن هذا أمرًا غريبًا، فالذي ينغمس في أعماق الخطيئة والكذب ومعاشرة الفاسدين هو أول من يعرف الحق لمّا يسمعه، كما حدث مع سحرة فرعون.

وأحاديث الحبيب محمّد الصحيحة أذهلتني، في كل شيء نحاول دسه وإخفاءه تأتي أحاديث محمّد -عليه الصلاة والسلام- وتضرب، أو يأتي القرآن ويضرب، والحق يقال إنا قد حاولنا بكل ما أوتيت عقولنا من حيلة أن نزيف أو نتدخل في أحاديث النبي محمّد لإخفاء بعض المعلومات، لكن كان الأمر حقًا مستحيلًا، ليس بسبب قوة المسلمين بالعكس هم اليوم أهون شيء، لكنّ المسلمين الأوائل ابتكروا نظامًا معقدًا لتتبع كلام نبيهم، حتى من أدخلناه ليكذب على نبيهم انكشف بعد قرون بسبب هذا النظام المعقد، بل إن المسلمين ينشرون كذبه هذه حتى يُحذّروا الناس منها، نظام هو الدقة والكمال كله، نظام سموه علم الحديث وعلم الرجال.

أما نحن فعبدّة شيطان، انسَ كل تصاوير خيالك عن عبدة الشيطان الذين يرتدون السواد ويضعون الأوشام والحلقان، فهؤلاء كلهم عصابة من المخابيل يعبدون السوداوية، وانسَ السكرة الذين يجولون في قريتك بثياب رثة ويسكنون في أماكن قذرة ويحضرون الجن والعفاريت، فهؤلاء أقصى ما يسلط عليهم هو جن الشوارع، لكن عبدة الشيطان الحقيقيين هم شيء آخر. الشيطان يعطيك المال إذا عبدته، ويحقق لك رغباتك الدنيوية لحظيًا، تجدنا دومًا أعلى طبقة في المجتمع، فوق الحكومات نفسها، نحن الذين نقرض الحكومات أموالًا ونستردها منهم بالربا، نحن أصحاب البنوك وأصحاب الأعمال والإعلام، نحن أسياد الدول، ولا فضل لنا في ذلك، إنما هو الشيطان.

ماذا يفعل الشيطان بحتالة يرتدون السواد ويرقصون في المعابد كالمجانين أو بأقذار يستغلون القرويين السذج؟ الشيطان الذي عرفته يا عزيزي هو نجمة الصبح، هو سيد الدنيا كلها، وأتباعه جعلهم أسياد الدنيا، المال والسلطة والتحكم بمقدرات الشعوب.

أما أنا، فأسلمت.. لكنني أخفيتها في قلبي، لأتوغل في ذلك المستنقع الذي لا يدري عنه أحد شيئاً، وأنبيك من داخله السر وراء السر، حتى أؤدي ما عليّ، وليقتلوني بعدها.

بعد موت سليمان تحررت الشياطين وهرع إبليس ليدل بعض الصيادين على كنز في البحر، فاستخرجوا ذلك التابوت المعبأ بالرصاص، وكان فتحه معضلة لكنها لم تهزم عقلاً مثل عقل إبليس، ولمّا فتحوه لم يجدوه كنزاً بل كارثة انقضت عليهم فتركهم صرعى في دمائهم، أما الأعور فقد ساح في الأرض مجدداً حتى ظهر يوماً في قصة أعجب مما سبق.. قصة حتى نحيط بها لا بد أن نخرج هذه المخطوطات، التي تدعى الإيستوريجا.

(رفع بوبي أمام الكاميرا بعض المخطوطات المجلدة بعناية فائقة واستمر في الكلام).

أنت لا تعلم أن الشيطان يكتب أيضاً، والإيستوريجا هي مخطوطات كتبها الشيطان بيده، وفي هذه الصفحات هاهنا دُوت ملحمة شيطانية، كان للأعور السامري شأن فيها.

لدينا خمس أوراق تبدو مناسبة جداً لملحمة.. سأرفعها لك أمام الكاميرا لترأها جيداً.

الورقة الأولى هي ورقة المذبحة، وفيها شيطان بشع ينظر بعيون مفترسة إلى شيء ما.

الورقة الثانية هي ورقة الهرم والعين، وعليها هرم الشيطان بداخله عين جميلة هي عين الشيطان التي ترى كل شيء.

الورقة الثالثة هي ورقة الشيطان ذاته، وعليها كيان شيطاني يرفع إحدى يديه ويخفض الأخرى، وهي الصورة الذهنية العامة للشيطان.

الورقة الرابعة هي ورقة الإمبراطور، وعليها صورة إمبراطور حديث السن ولا يبدو سعيدًا.

الورقة الخامسة هي ورقة جوبيتر إله السماء، وعليها جوبيتر الإله الروماني يمسك بعصاه الشهيرة وهو يرتدي تاجًا، ويبدو أنه يُنزل حكمًا قاسيًا على مجموعة من الناس المترامين تحته كالأموات.